سحر بابل وأصول الصابئة المندائية

صلاح حسن

«أصول الصابئة ـ المندائيين ـ ومعتقداتهم الدينية»[1] دراسة حديثة تظهر باللغة العربية عن الطائفة التي نشأت في وسط وجنوب وادي الرافدين قبل ظهور المسيحية. البحث في المسألة المندائية قضية شائكة جداً.. اذ ينبغي على الباحث ليس فقط معرفة اللغة المندائية.. بل كذلك السريانية والعبرية والاغريقية

اما السبب الاخر فهو تحول الديانة الصابئية الى ديانة شبه سرية بسبب الاضطهادات التي تعرضت لها طيلة القرون الماضية.

المؤلف، وبسبب اعتماده المصادر الاجنبية وكتابات المستشرقين لا يستطيع ان يجزم فيما اذا كان الصابئة قد ظهروا في وادي الرافدين أو انهم جاءوا من فلسطين. وبسبب من طغيان نزعة المركزية الاوروبية على البحث.. المركزية الاوروبية التي ترجع اصل كل حضارة الى الاقوام الارية والعقل الاوروبي.. فانه يترك الباب مفتوحا. ومع ان هناك الكثير من المعطيات التاريخية التي تؤكد الاصل الرافيدني للصابئة المندائيين. الا ان المؤلف يكتفي بعرض هذه المعطيات دون ان يقدم رأيا قاطعا «انه ليصعب القطع بأن المندائية تلقت التأثيرات اليهودية من فلسطين وحدها حين تكون مثل هذه التأثيرات وجدت في جنوب ما بين النهرين ايضا وبقوة لا تقل عما هي عليه في فلسطين. لقد تخلفت في جنوب وادي الرافدين مجموعات كبيرة من اليهود بعد ان سمح الملك الفارسي الاخميني كورش بهذه العودة، والواقع ان القلة من اليهود الذين سباهم بختنصر قد عادوا الى فلسطين.. اذ آثرت الاغلبية ان تواصل عيشها في بلاد الرافدين. وفي العهد البارثي كانت هناك مجمعات لليهود في جميع المدن البابلية». ان التلمود البابلي، وهو من اهم الكتب الدينية اليهودية كان قد دون في جنوب العراق وباللهجة الارامية التي تشبه كثيراً اللغة المندائية. لكن المؤلف لايعلق على هذه النقطة. كما ان عزرا الذي تخلف عن العودة الى فلسطين والذي اشرف على تدوين الادب اليهودي في اورشليم من بعد، عاد الى ميسان وتوفي هناك في قرية العزير. كل هذه الاشارات لا تثير المؤلف للتعليق عليها وكأني به يمارس ـ التقية ـ الشيعية ـ فهو لايريد ان يقول ان المندائية متأثرة بالديانة اليهودية المتأثرة بدورها بالاساطير السومرية والبابلية. أو انه واقع تحت تأثير التحريم الديني الذي تفرضه الطائفة في عدم اشاعة اسرار الديانة. ولكن على كل حال فأن الذنب ليس ذنبه خصوصاً اذا كانت المركزية الاوروبية والمستشرقون يشككون في الاصل.. واعني بذلك اصل السومريين. لذلك لابد لنا من تقديم وجهة نظرنا.

يعتقد اكثر الباحثين والمهتمين بتاريخ الحضارات القديمة ان اصل السومريين ينحدر من مرتفعات ايران. كما يعتقدون ان النظرية الخليجية من اكثر النظريات رجاحة في تحديد اصل السومريين. ولكن وبالرجوع الى المصادر التاريخية نجد ان هناك تناقضاً خطيراً ومعقدا في ما يتعلق بسكان المستنقعات ـ العبيد ـ الذين سكوا منطقة ما بين النهرين منذ ما بعد العصر البرونزي.

وسأحاول هنا أن اقدم بعض المقترحات ومن خلال المصادر التاريخية ترجح ان تكون الأقوام التي انحدرت من مرتفعات ايران هي الاقوام التي هاجرت من جنوب وادي الرافدين اثناء الطوفان الكبير الذي امتد قرابة ٤٠٠ سنة.

جاء في الموسوعة العالمية للآثار «اما في جيان وتل باكون وسوس فلا يوجد اي اعمار سابق لنهاية سيالك الثالثة.. وبداية الالف الثالث ق.م شاهد على دمار سيالك الثالثة. والاثار الباقية التي من العصر التالي تمدنا بالدليل على قيام حضارة دخيلة وهي حضارة سوسة التي تأثرت تأثراً قوياً ببلاد وادي الرافدين»[2]. وفي مكان اخر من الموسوعة وتحت عنوان ـ السومريون ـ يرد التالي: «لم يكن السومريون يعرفون الا من خلال نصوص الالواح المسمارية. بينما بقيت المواد الاثارية من هذا العصر مجهولة. ولكن ما كاد يحل ١٩٣١ حتى اثبتت الحفائر العديدة ثلاث مراحل سبقت تاريخ الاسرات في سومر وقد اطلق عليها اسماء المواقع الاثرية التي عثر بها على شواهد كل مرحلة لاول مرة.. العبيد، واوروك، وجمدة نصر. وقد بينت حفائر العبيد ان سكان سومر الاوائل ـ شنعار في التوارة ـ جاءوا اصلا من مرتفعات ايران وقد استقروا في جنوب وادي الرافدين حوالي ٤٠٠٠ ق.م»[3]، وبالعودة الى الاقتباسين نجد التناقض واضحا حيث تقول الموسوعة: «والاثار الباقية من العصر التالي تمدنا بالدليل على قيام حضارة ـ دخيلة ـ وهي حضارة سوس، سوسة التي تأثرت تأثراً قوياً ببلاد وادي الرافدين ـ في بداية الالف الثالث ق.م» فكيف يمكن للسومريين الذين سكنوا بلاد وادي الرافدين قبل ٤٠٠٠ سنة ق.م كما تقول الموسوعة ان يكونوا منحدرين من مرتفعات ايران؟! ولكي نؤكد قيام تلك الحضارة الداخلية في سيالك والتي اخذت الكثير من التقاليد العبيدية السومرية فأننا نعود للموسوعة التي تمدنا بالدليل المادي «والسكان الاوائل لسيالك في الالف الخامس قبل الميلاد كانوا صيادين وكانوا يكملون قوتهم بالزراعة وتربية الحيوان وسرعان ما استبدلوا مساكنهم التي تشبه العشش بمبان طينية ـ بيزيه ـ صغيرة»[4]. وبالرجوع الى سكان المستنقعات ـ العبيد ـ الذين سكنوا تلك المنطقة منذ ما بعد العصر البرونزي نجد من طراز بناء المنازل هو نفسه الذي وجد في سيالك.. خصوصا وان المواد المستعملة في بناء هذه المنازل لا توجد الا في جنوب وادي الرافدين في المستنقعات.. وهي القصب والبردي.. وهما نبتان لا يمكن ان ينموا في مرتفعات ايران الصخرية والصحراوية. وارجح الظن ان العبيديين هاجروا الى مرتفعات ايران القريبة منهم بسبب الفيضانات السنوية التي كانت تهدد حياتهم ومزروعاتهم ونقلوا معهم تقاليدهم في بناء المنازل. وبما ان مرحلة العبيد استمرت ٤٠٠ سنة وهي الفترة ذاتها التي انحسرت فيها مياه الفيضان عن جنوب وادي الرافدين.. فأن الاقوام التي هاجرت بسبب الفيضان عادت مرة اخرى الى مواطنها الاصلي متأثرة ببعض التقاليد الموجودة في مرتفعات ايران.

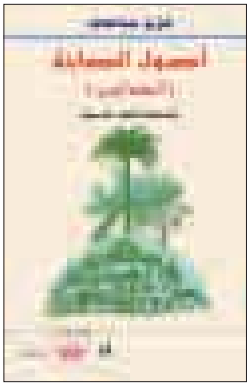

واذا كانت حفريات العبيد قد كشفت عن ثلاث مراحل سبقت تاريخ الاسرات في سومر هي العبيد والوركاء وجمدة نصر.. فان الحفريات تؤكد بما لا يقبل الشك ان العبيديين هم السكان الاوائل لجنوب وادي الرافدين. ولكن الذي يعنينا الان هو المرحلة الحضارية الثانية ـ الوركاء ـ وهو موقع بلدة من اقدم المدن السومرية (اوروك) اربع في التوارة.. تقول الموسوعة: «وهي اكبر تقدماً من اثار سكان المستنقعات الاوائل توحي بحلول جنس اجنبي من اقوام جبلية جاءت من الاناضول وتفرقت شمالاً وجنوباً في بلد الرافدين»[5]. الموسوعة توحي بحلول جنس اجنبي دون ان تقدم دليلا ماديا ملموساً عن قدوم جنس آخر له اثاره ومقتنياته وتتجاهل ان يكون سكان العبيد الاوائل قد عاشوا ازدهاراً اقتصادياً كبيرا بعد انحسار الفيضان وبتأثير هذا الازدهار انتعشت الحياة الدينية والاجتماعية للسكان فطوروا بناء المعابد، وانظمة الري للتخلص من فيضان دجلة والفرات الذي يسبق فترة الحصاد فأنتجوا بذلك حضارة الوركاء. ثم ان الاقوام التي نزحت من الاناضول هي اقوام هندو ـ اوروبية ولايوجد اي مصدر تاريخي يقول بوجود مثل هذه الاقوام كما يشير الى ذلك الاستاذ علي الشوك في مقاله ـــ السومريون ليسوا اكراداً ـ «وليس ثمة ما يشير في اي مصدر من المصادر التاريخية الى ان الاكراد استوطنوا كردستان الحالية قبل سبعة الاف سنة .. لان الاقوام الهندو ـ اوروبية لم يكن لها وجود او ذكر في الشرق الاوسط برمته في تلك المرحلة»[6].

تبقى لدينا حلقة مفقودة لم يهتم الباحثون والعلماء بدراستها هي فترة الطوفان الذي حصل في اور والذي فقدت بسببه اثار الاسرتين السومريتين الاولى والثانية. فالاثار التي تركتها الاسرة الثالثة لايمكن ان تكون قد انتجت من فراغ.. ولابد ان تكون هناك حضارة سابقة لها قام الطوفان بتدميرها كلياً، خصوصاً وان الحضارة السومرية الاولى قامت على الطين والقصب وهما مادتان لايمكن أن تصمدا بوجه الفيضان الذي حصل. تقول الموسوعة «يبدأ التثبت التاريخي السومري بالاسرة الثالثة بعد الطوفان وهي الاسرة المعروفة بأسم اور الاولى. ويؤيد صحة هذه الرواية لوح مكتوب وجد في احد الاساسات في اور ويبين ان اول ملوك هذه الاسرة كان ملكا يدعى ميساني ـ بادا حوالي ٢٩٠٠ ق.م وفي هذا العصر كانت اور هي العاصمة المزدهرة في جنوب وادي الرافدين»[7].

نستنتج من كل ذلك التالي:

١ـ ان السومريين لم يقدموا من مرتفعات ايران بدليل ان الحضارة التي قامت في سيالك الثالثة بداية الالف الثالث ق.م كانت دخيلة ومتأثرة تأثرا قويا ببلاد ما بين النهرين. مما يدل على ان السومريين سبقوا الايرانيين بحوالي ١٠٠٠ سنة بداية الالف الرابع ق.م.

٢ـ ان نمط بناء المنازل الذي وجد في سيالك الثالثة هو النمط ذاته الذي استخدمه العبيديون قبل ستة الاف سنة في جنوب العراق.

٣ـ وان المادة المستخدمة في بناء العشش هي القصب والبردي ولايوجد هذان النباتان في المرتفعات الايرانية.. حيث من المستحيل ان ينمو القصب والبردي في المناطق الصخرية او الصحراوية.

٤ـ بما ان المصادر التاريخية لم تشر مطلقا الى وجود اقوام هندو ـ اوروبية في الشرق الاوسط فأنه من العسير القول ان اصل السومريين ينحدر من اصل هندو ـ اوروبي.

والرأي الراجح هنا هو ان الاسرتين السومريتيين الاولى والثانية هاجرتا من جنوب العراق الى المناطق المرتفعة القريبة بسبب الفيضان وعادت بعد انحساره اي بعد ٤٠٠ سنة. والمشكلة الجوهرية في هذا الصدد هي ان الفيضان لم يبق على اثر للاسرتين مما يجعل من العسير ربط العبيديين بالاسرة الثالثة مباشرة.. على الرغم ن التشابه الكبير بين العبيديين والاسرة الثالثة في ما يتعلق بأدوات الصيد والزراعة والعبادات. وبالعودة الى الموسوعة التي تقول: «وفي كل مدونة تاريخية سومرية كان اول حادث له الاهمية القصوى هو الطوفان. وقد قسم هذا الحادث قائمة الملوك السومرية الى قسمين تنتهي اولهما الطوفان»[8].. فكم ملكا كان في القسم الاول من القائمة؟ وكم سنة حكم كل ملك منهم؟ ان مراجعة دقيقة ومتأنية لمرحلة الطوفان يمكن ان تكشف الحلقة المفقودة من تراث الاسرتين السومريتين الاولى والثانية والملتين تعدان الامتداد التاريخي الصحيح لسكان المستنقعات العبيديين، وليس من المستبعد ان يكون السومريون ابناء او احفاداً للعبيديين، السكان الاوائل لجنوب وادي الرافدين.

بعد هذه الجولة الطويلة نسبيا في تقصي الاصول السومرية نعود الى كتاب اصول الصابئة المندائيين وبالتحديد الى الفصل الثاني (المندائية والدين البابلي) يعقد المؤلف مقارنة بين الديانة والاساطير البابلية والمندائية فيجد انها واحدة ومتشابهة تماماً فيتساءل مندهشا: «يثار هنا تساؤل مشروع هل كان المندائيون تأثروا بشكل مباشر بأفكار الجماعات البابلية التي كانت تجاورهم، أو ان يكونوا هم ذاتهم من بقايا البابليين وطوروا معتقداتهم من خلال تفاعلهم مع الجماعات اليهودية والفارسية، وغيرها التي كانت تعيش بجوارهم»؟ ويزداد دهشته وهو يستعرض الاسطورة المندائية التي تتحدث عن العالم السفلي «فعدا عن التكرار الشائع في تراتيلهم الشعرية والذي ساروا فيه على غرار الادب البابلي.. فأن هناك جوانب عديدة تثير انتباها خاصة ما تتعلق بعراقية البيئة التي تدور فيها الاحداث التي تورد كتبهم»... وفي كتاب دراشة ديهيا ـ تعاليم يحيى ـ يشار الى صيد السمك على الضوء.. وهي طريقة معروفة في صيد السمك في اهوار العراق في موسم صيد الزرّة». ان كل هذه الشواهد والمعطيات المادية والتاريخية لا تشجع المؤلف على القول بالاصل الرافيدني للمندائيين.. لا بل انه يصر على نظرية الاصل الغربي للمندائية: «يظل هناك تحفظ معين يحسن ان نختتم به هذا الفصل هو ان الجماعات البابلية وغير البابلية التي اسكنها ملوك اشور ويختتصر في فلسطين.. والسامريون كما يذهب بعض الباحثين من هؤلاء، واليهود الذين عادوا من سبي ايام كورش الى فلسطين ربما يكونون قد حملوا معهم الاساطير والمعتقدات البابلية.. فهل برزت المندائية هناك كما تذهب نظرية الاصل الغربي للمندائية»؟ يبقى ان نقول ان المندائيين الذين عاشوا الفي سنة في ميسان وحدها كانوا يكتبون اسم مدينتهم مجزأ هكذا «مي» وتعني المندائية الماء و«شان» وتعني القصبي اشارة الى وجودها في اقصى الجنوب.. ويكتب الاسم بالطريقة نفسها باللغة السريانية، اما العبرية فيكتب «ميشين» وبالفارسية «ميشيون» والعربية ميسان، والملاحظة الاخيرة التي نود طرحها هي ان الصابئة المندائيين كانوا يكتبون اسم مدينة اورشليم مجزأ ايضا هكذا (اور ـ شليم) فهل هناك علاقة من نوع ما بين مدينة أور الرافدينية وبين اورشليم الفلسطينية ـ القدس؟

الموقف النقدي

لو دعوت الله بهذا الكلام لما أجابك

«وقال (الصاحب بن عباد) يوماً في دار الامارة لفيروزان المجوسي، وكان الخرائطي حاضراً، في شيء نابذه عليه:

إنما أنت مخش مجش محش لا تهش ولا تبش ولا تمش.

فقال له الفيروز: أيها الصاحب، برئتُ من النار إن كنتُ أدري ما تقول، إن كان من رأيك أن تشتمني فقل ما شئتَ بعد أن أعلم، فإن العرض لك، والنفس فداؤك، لستَ من الزنج، ولا من البربر، ولا من الغُز، كلّمنا بما نعقل على العادة التي عليها العمل، والله ما هذا من لغة آبائك الفرس، ولا لغة أهل دينك من هذا السواد، فقد خالطنا الناس فما سمعنا منهم هذا النمط، وإني أظن أنك لو دعوتَ الله بهذا الكلام لما أجابك، ولو سألته لما أعطاك، ولو استغفرت الله به ما غفر لك، وحقيقٌ على الله ذلك.

فقال الخرائطي: أيها الصاحب! والله لقد صدقَ فلا تغضب، فليس كل من وثق بأنه لا يراجع في قوله وفعله ركب ما يحمّق فيه شاهداً وغائباً.

فقام (الصاحب) عنهما خزيان يردد ريقه حقداً عليهما، وكان ذلك سبباً كبيراً في فساد أمرهما».

التوحيدي (أخلاق الوزيرين)

هوامش

١ـ عزيز سباهي ـ دار المدى.
٢ـ الموسوعة العالمية للآثار ـ اشراف ليونارد كوتريل تأليف ٤٨ عالماً آثاريا ـ الهيئة المصرية للكتاب .
٣ـ موضوعة ايران. ص ٢٣١.
٤ـ المصدر السابق نفسه، ص ٤٩٩.
٥ـ المصدر السابق، ص ٢٣١.
٦ـ المصدر السابق، ص ٤٩٩.
٧ـ السومريون ليسوا اكرادا، علي الشوك جريدة الحياة.
٨ـ الموسوعة العالمية للآثار ص ٥٠٠.